بسم الله الرحمن الرحيم

٩١ – سورة الشمس

مكية ، وآيها خمس عشرة .

وقد تقدم حديث جابر الذى فى الصحيح[1] أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : هلّا صليت بسبح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى .

(١) أخرجه النسائىّ فى: ١١ ـ كتاب الافتتاح ، ٦٣ ـ باب القراءة فى المغرب بسبح اسم ربك الأعلى .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا)

[٢] (وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا)

[٣] (وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا)

[٤] (وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا)

[٥] (وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا)

[٦] (وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا)

[٧] (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا)

[٨] (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا)

« وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا » أى ضوئها إذا أشرقت . قال الراغب : (الضحى) انبساط الشمس وامتداد النهار ، وبه سمى الوقت . وحقيقته ـ كما قال الشهاب ـ تباعد الشمس عن الأفق المرئىّ وبروزها للناظرين . ثم صار حقيقة فى وقته . وقال الإمام : يقسم بالشمس نفسها ظهرت أو غابت لأنها خلق عظيم . ويقسم بضوئها لأنه مبعث الحياة ومجلى الهداية فى عالمها الفخيم . وهل كنت ترى حيا أو تبصر ناميا ، أو هل كنت تجد نفسك ، لولا ضياء الشمس ، جل مبدعه؟

« وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا » أى تبع الشمس ، قال الإمام : وذلك فى الليالى البيض ، من الليلة الثالثة عشرة من الشهر إلى السادسة عشرة . وهو قسم بالقمر عند امتلائه أو قربه مع الامتلاء . إذ يضىء الليل كله مع غروب الشمس إلى الفجر . وهو قسم فى الحقيقة بالضياء فى طور آخر من أطواره . وهو ظهوره وانتشاره الليل كله .

« وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا » أظهر الشمس . وذلك عند انتفاخ النهار وانبساطه . لأن الشمس تنجلي في ذلك الوقت تمام الانجلاء . وفي هذه الأقسام كلها ـ كما قاله الإمام ـ إشارة إلى تعظيم أمر الضياء وإعظام قدر النعمة فيه ، ولفت أذهاننا إلى أنه من آيات الله الكبرى ونعمه العظمى . وفي قوله (إِذَا جَلَّىٰهَا) بيان للحالة التي ينطق فيها النهار بتلك الحكمة الباهرة والآية الظاهرة . وهي حالة الصحو . أما يوم الغيم الذي لا تظهر فيه الشمس ، فحاله أشبه بحال الليل الذي يقسم به في قوله « وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا » أي يغشي الشمس ويعرض دون ضوئها فيحجبه عن الأبصار . وذلك في ليالي الظلمة الحالكة المشار إليها بقوله في الآية المتقدمة [1] (وَلَيَالٍ عَشْرٍ) على القول الأخير . قال الإمام : ولقلة أوقات الظلمة ، عبر في جانبها بالمضارع المفيد للحاق الشيء وعروضه متأخرا عما هو أصل في نفسه . أما النهار فإنه يجلي الشمس دائماً من أوله إلى آخره . وذلك شأن له في ذاته . ولا ينفك عنه إلا لعارض . كالغيم أو الكسوف قليل العروض . ولهذا عبر في جانبه بالماضي المفيد لوقوع المعنى من فاعله ، بدون إفادة أنه مما ينفك عنه .

« وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا » أي ومن رفعها ، وصيّرها بما فيها من الكواكب ، كالسقف أو القبة المحكمة المزينة المحيطة بنا . فـ (ما) موصولة بمعنى (من) أوثرت لإرادة الوصفية . أي والقادر الذي أبدع خلقها .

قالوا : وذكر (مَا بَنَىٰهَا) مع أن في ذكر (ٱلسَّمَآءِ) غنية عنه ، للدلالة على إيجادها وموجدها صراحة (وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا » أي بسطها من كل جانب ، لافتراشها وازدراعها والضرب في أكنافها .

قال الإمام : وليس في ذلك دليل على أن الأرض غير كروية ، كما يزعم بعض الجاهلين . أي بتحريفه الكلم عن معناه المراد منه . « وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا » أي خلقها فعدل خلقها

---

(١) [٨٩ / الفجر / ٢] .

ومزاجها ، وأعدها لقبول الكمال « فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا » أى أفهمها إياهما، وأشعرها بهما، بالإلقاء الملكىّ والتمكين من معرفتهما، وحسن التقوى وقبح الفجور بالعقل الهيولانىّ.

لطيفة :

جوز فى (ما) كونها مصدرية فى الكل، ولا يضره خلو الأفعال من فاعل ظاهر ومضمر إذ لا مرجع له . وعطف الفعل على الاسم لأنه يكفى لصحة الإضمار دلالة السياق. وهى موجودة هنا . وأن العطف على صلة (ما) لا عليها مع صلتها . فكأنه قيل : ونفس وتسويتها ، فإلهامها الخ . وعطف الفعل على الاسم ليس بفاسد . نعم فى الوجه الأول توافق القرائن وهو أسدّ. وأما الثانى فوجه يتسع النظم الكريم له . وأما تنكير (نفس) فللتكثير أو التعظيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا)

[١٠] (وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا)

[١١] (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ)

[١٢] (إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا)

« قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا » أى زكى نفسه وطهرها من رجس النقائص والآثام. أو نماها بالعلم والعمل والوصول إلى الكمال وبلوغ الفطرة الأولى «وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا» أى أخملها ووضع منها ، بخذلانه إياها عن الهدى حتى ركب المعاصى وترك طاعة الله تعالى . هذا ما قاله ابن جرير[1]. وقال غيره: أى نقص تزكيتها وأخفى استعدادها وفطرتها التى خلقت عليها بالجهالة والفسوق . وهو مأخوذ من (دس الشىء فى التراب) أى أدخله فيه وأخفاه. وأصل (دسّى) دسّس . كتقضّى البازى ، وجملة (قَدْ أَفْلَحَ) الخ جواب القسم وحذف اللام للطول .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢١٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبىّ الثانية) .

قال القاضى : وكأنه لما أراد به الحث على تكميل النفس والمبالغة فيه ، أقسم عليه بما يدلهم على العلم بوجود الصانع ووجوب ذاته وكمال صفاته الذى هو أقصى درجات القوة النظرية ويذكرهم عظائم الإله ليحملهم على الاستغراق فى شكر نعمائه الذى هو منتهى كمالات القوة العملية .

وذهب الزمخشرىّ إلى أن هـذه الجملة كلام تابع لقوله (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا) على سبيل الاستطراد . وجواب القسم محذوف تقديره : ليُدَمْدِمَنّ الله عليهم . أى على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله ﷺ . كما دمدم على ثمود ، لأنهم كذبوا صالحاً عليه السلام. وقد دل عليه قوله تعالى « كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَا » أى بسبب طغيانها ومجاوزتها الحـدّ فى الفجور . فـ(الطغوى) مصدر . وجوز أن يراد به العذاب نفسه، على حذف مضاف أو بدونه، مبالغة. كما يوصف بغيره من المصادر . أى كذبت بما أوعدت به من عذابها ذى الطغوى، كقوله (فَأُهْلِكُواْ بِالطَّاغِيَةِ) فالطغوى على هذا من التجاوز عن الحدّ والزيادة من العذاب . والباء صلة (كذبت) . وقوله تعالى « إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا » ظرف لـ(كذبت) أو (طغوى) أى حين قام أشقى ثمود لعقر ناقة صالح عليه السلام . وكانوا نهوا عن مسّها بسوء ، وأنذروا عاقبة المخالفة ، كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا)

[١٤] (فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا)

[١٥] (وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا)

« فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ » يعنى صالحاً عليه السلام لقومه ـ « نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا » أى احذروا واتقوا ناقة الله التى جعلها آية بينة وشربها، الذى اختصه الله به فى يومها . وكان عليه السلام تقدم إليهم عن أمر الله أن للناقة شرب يوم ولهم شرب يوم آخر، غير يوم الناقة.

كما بينته آية الشعراء . قال[1] (هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ) أى لا تؤذوا الناقة ولا تتعدوا عليها فى شربها ويوم شربها « فَكَذَّبُوهُ » أى فيما حذرهم منه من حلول العذاب إن فعلوا « فَعَقَرُوهَا » أى قتلوها .

قال فى النهاية : أصل العقر ضرب قوائم البعير أو الشاة بالسيف وهو قائم . ثم اتسع حتى استعمل فى القتل والهلاك . وذلك أنهم أجمعوا على منعها الشرب ورضوا بقتلها . وعن رضا جميعهم قتلها قاتلها وعقرها من عقرها . ولذلك نسب التكذيب والعقر إلى جميعهم « فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ » أى أهلكهم وأزعجهم بسبب كفرهم به وتكذيبهم رسوله وعقرهم ناقته ، استهانة به واستخفافا بما بعث به . وقيل : دمدم أطبق عليهم العذاب . وقيل : الدمدمة حكاية صوت الهدة « فَسَوَّىٰهَا » أى فسوى الدمدمة عليهم جميعا ، فلم يفلت منهم أحد . بمعنى جعلها سواء بينهم أو الضمير لثمود . أى جعلها عليهم سواء « وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا » أى لا يخشى تبعة إهلاكهم لأنه العزيز الذى لا يغالب .

قال الشهاب : أى لا يخاف عاقبتها كما يخاف الملوك عاقبة ما تفعله . فهو استعارة تمثيلية لإهانتهم وأنهم أذلاء عند الله . فالضمير فى (يخاف) لله وهو الأظهر . ويجوز عوده للرسول ﷺ . أى أنه لا يخاف عاقبة إنذاره لهم وهو على الحقيقة ، كما إذا قيل : الضمير للأشقى أى أنه لا يخاف عاقبة فعله الشنيع . والواو الحال أو الاستئناف .

تنبيه :

قال ابن القيم فى (مفتاح دار السعادة) : المقصود أن الآية أوجبت لهم البصيرة فآثروا الضلالة والكفر عن علم ويقين . ولهذا ، والله أعلم ، ذكر قصتهم من بين قصص سائر الأمم فى سورة (وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا) لأنه ذكر فيها انقسام النفوس إلى الزكية الراشدة المهتدية ،

---

(١) [٢٦ / الشعراء / ١٥٥ ، ١٥٦] .

وإلى الفاجرة الضالة الغاوية . وذكر فيها الأصلين : القدر والشرع . فقال[١] (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا) فهذا قدره وقضاؤه ثم قال[٢] (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا) فهذا أمره ودينه . وثمود ، هداهم فاستحبوا العمى على الهدى . فذكر قصتهم ليبين سوء عاقبة من آثر الفجور على التقوى ، والتدسية على التزكية . والله أعلم .

---

(١) [٩١ / الشمس / ٨] . (٢) [٩١ / الشمس / ٩] .